النهضة الأفغانية

بقلم الأستاذ محمد محمود زيتون

شهد الإسلام فى القرن الثامن عشر الميلادى ركودا ، شعر معه النيورون بضرورة البعث والنهوض . فقد هب محمد بن عبد الوهاب بحركة « تجديد للدين الإسلامى » وأخذت دعوته تنتشر من نجد إلى ما وراءها من سائر بقاع الإسلام ، حتى قامت نهضة دينية إسلامية فى البنجاب ؛ وجدت صداها فى بلاد الأفغان . ولا سيما عندما عانى الإنجليز الأمرين فى فتح الهند ، إذ وقفت الحركة الوهابية الهندية فى وجه الاستعمار ، بينما أخذ السنوسى فى الجزائر بنظام « الإخوان » (١) ويممهم لفتح كل مرفق اجتماعى واقتصادى مستمداً نشاطه من التعاليم الإسلامية . وإذ بيت الاستعمار الإيطالى نية الغدر والانقضاض على بلاد المغرب ، فقد استعدت السنوسية لهذا الخطر ، فأعلنت الجهاد المقدس ، وأخذت للأمر ما يتطلبه من السلاح والتموين والزهد جميعا .

وتبلورت هذه اليقظة (٢) ، فلم يكن بد من انضواء المسلمين تحت لواء « الجامعة الإسلامية » ، تنهض جناحها الأيمن شرقاً على يد الوهابية التى لم تأل جهداً فى تطهير الدين مما اعتوره من شوائب كادت تطمس جوهره فى عصور الظلام . بينما تنهض جناحها الأيسر على يد السنوسية التى أدركت صميم الاسلام كدين ودنيا وعقيدة وعمل . عبادة وسياسة ، وحق وجهاد ، ومصحف وسيف وبالسنوسية والوهابية قامت حركة التحرير والتنوير فى هذا القرن الصاخب بالاستعمار وأساليبه

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه الحركة لم تخالطها نزوات التعصب ، بل ذهبت إلى أبعد حد فى التسامح ، واقترنت بالدعوة إلى الاقتباس من الغرب كل ما ينفع ولا يضر . دعا إلى ذلك المصلح الإسلامى الهندى ، السيد أحمد خان ، غير عابىء بالجمود الذى خيم ردحاً من الزمن على كل أفق إسلامى ، حتى تلألأت شرارة الإصلاح فى كل مكان ، وقامت ثورة « تركيا الفتاة » سنة ١٩٠٨ م كنتيجة لازمة حاتمة لهذه المقدمات الدينية السليمة.

فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى فتح الهند السلطان محمود ابن سبكتكين الغزنوى التركى ، فتهاوت أباطيل البراهمة أمام كتائب الإسلام المظفرة . واقتفى أثره من الأفغان السلطان محمد الغورى الذى ضم دهلى إلى ممالكه سنة ١١٩٤ م . ونسج على منواله القائد بختيار الأفغانى الذى طهر البنغال وكوجرات من البوذية ، فكانت هذه الحركة الجهادية إرهاصا بقيام دولة إسلامية فى الهند عاصمتها دهلى ، ظل الزمان يحالفها من القرن العاشر إلى أوائل القرن التاسع عشر . حيث أخذت الضربات الإنجليزية تتوالى على هذا الصرح العتيق ، الذى لم يكن بد من أن يتصدع بعد أن صمد طويلا أمام الطغيان ، وشهد الدهر كم كانت همة الأفغان مرادفة للجبال الرواسى التى — على الرغم من تلوح عمائمها — أوقدت نار الحمية فى نفوس أبطالها .

فإذا كان القرن التاسع عشر ، بعث نابليون بونابرت الجنرال غاردان لمفاوضة إيران الدخول فى محالفة مع فرنسا لفتح الهند ، فأسرعت إنجلترا إلى الأفغان لتتخذ منها درعاً ضد إيران ، ولما قامت الثورة الأفغانية التجأ أخو الصدر الأعظم إلى الإنجليز يستعديهم على أخيه دوست محمد خان وهو إذ ذاك حليف لروسيا .

اهتبلت إنجلترا هذه الفرصة وجردت حملتها على الأفغان سنة ١٨٣٩ م ، وبعد عامين ، زاد فيها حنق الأفغانيين الأحرار على الناصبين الإنجليز ، فقتل المعتمد البريطانى فى كابل ، ومعه عدد من ضباط الاحتلال . ولم يزل الأفغانيون يناصبون الإنجليز العداء حتى نصبوا الكمين لهم فى (خورد كابل) فاستأصلوا حوالى سبعة عشر ألفاً من الإنجليز الذين استماتوا بحاميتهم فى الهند على نسف قلاع العاصمة ، وبذلك ثأروا لأنفسهم .

أما وقد شمخ الأفغانيون بأنوفهم للاحداث ، وعافوا الاستبداد ولم يستنيموا للضيم فإن الإنجليز رأوا أنفسهم مضطرين لتغيير نظرتهم إزاء الأفغان الحر الأبى ، وحاولوا أن يبثوا عقارب السوء فذهبت محاولاتهم أدراج الرياح ، وأوقعوا خلال الصفوف

(١) السنوسية دين ودولة : للدكتور محمد فؤاد شكرى .
(٢) حاضر العالم الإسلامى : لوثروب ستودارد وشروح شكيب أرسلان .

يبغون الفتنة ، فارتدت سهامهم إلى نحورهم . ولكن الأفغانيين وقفوا صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص إذ تضافر الشعب والسلطان . وكان الدورانيون — وهم الأسرة المالكة ويبلغون ثلث الأفغان — أشد اعتزازاً بالوحدة أمام الدسائس الإنجليزية من جهة ، والأسلحة الفتاكة التي يتذرع بها الدخيل البارد من جهة أخرى .

حقاً لقد كان الشعب الأفغاني أعزل من كل سلاح إلا التضامن والإيمان بالحق ، والجهاد حتى يتحرر الوطن من الطغاة المستبدين .

ولما مات (دوست محمد خان) سنة ١٨٦٣ دب الشقاق بين أولاده ، وظن الإنجليز أنها ثغرة يستطيعون النفاذ منها إلى إشباع مطامعهم ، ولكن فوت عليهم هذه الفرصة ما توارثه الأمراء الأفغانيون من بغض الاحتلال ، وأعداء الوطن . أليس أبوهم القائل للورد لورنس : « إن كنتم تريدون أن نبقى أصحابا ، فلا تكرهونى على قبول ضباط انجليز فى بلادى » ؟ وضرب (شير على خان) أروع المثل فى الإباء إذ استعصى عوده على الإنجليز الذين غمزوا جانبه فلم يلن لهم ، ولم يهن هو على نفسه . فأحنقوا على السلطان ابنه (يعقوب خان) وحرضوه على أبيه ، واحتضنوه وأفسحوا له صدرا باردا منذ أخذوه إلى إنجلترا ، ولقنوه تعاليمهم الاستعمارية ظاهرها وباطنها ، كما أغروا الفقراء بالعمل فى الحاميات البريطانية بالهند لقاء أجور عالية استعداداً لتجنيدهم ضد بلادهم فى القريب المنتظر على ما كانوا يزعمون .

وفى سنة ١٨٧٨ أعد الإنجليز عدتهم للإجهاز على الأفغان ، فإذا بأمراء الهند ومرتزقة البنجاب والسيخ وأخلاط من المنبوذين وعباد البقرة والعنزة يدخلون كابل بقيادة اللورد دوبرتس .

وفر (شير على خان) إلى مزار شريف فى القسم التركى من بلاده ، وكان قد استدعى ابنه يعقوب وأمنه على نفسه ثم سجنه حتى إذا دخل الإنجليز كابل أطلقوا سراحه ونصبوه أميرا وعقدوا معه معاهدة (غاندامق) ، وأملوا عليه طبعاً كل رغائبهم التى يشوبها من نيلها من أبيه ، غير أنهم لم يكادوا يتمتعون بما ظفروا به حتى اندلعت نار الثورة الوطنية من جديد فخلعوا يعقوب خان ، ونفوه إلى الهند ، وأخذوا يولون ويعزلون بعد موت (شير على خان) سنة ١٨٧٩ حتى هدأت البلاد على يد الأمير (عبد الرحمن) وتم الجلاء عن البلاد ، وبذلك توطد نفوذه ، وأقام مصانع السلاح والذخيرة ، ودرب الجيش ، ووسع الحدود شرقا ، وباتت البلاد فى أمان واطمئنان حتى مات سنة ١٩٠١ .

وخلفه ابنه الأمير (حبيب الله خان) الذى لم يشأ أن يطعن الإنجليز من الخلف حين شبت الحرب العامة ، ولم يصغ إلى تحريض الألمان والأتراك حتى اغتيل وهو فى مشتاه بجلال آباد . وخلفه ولده (أمان الله خان) ، فبايعه الشعب دون أخيه ولى عهد أبيه نصر الله خان ، وبغير موجدة من أحدهما على الآخر ..

فلما استقرت الأمور ، وأجمعت العناصر المختلفة على المطالب الوطنية ، صرت بريطانيا خدها ، فبدأ الجيش الأفغانى زحفه مخترقاً حدود الهند ، وأبلى أحسن البلاء . وكانت الحرب سجالا وسئم المحاربون الإنجليز بعد أن توالت عليهم الضربات من جراء سياستهم الناشئة ، فطلبوا الهدنة وتم الصلح سنة ١٩٢١ على استقلال الأفغان فى سياسة الداخل والخارج ، مع تحديد المنطقة الحرام بين الهند والأفغان .

وإيمانا من الملك بنفسه ، واعتزازاً بالاستقلال التام الذى يؤخذ بالجهاد ، ولا يستجدى من أحد ، أسرع — قبل عقد الصلح — إلى إرسال سفرائه إلى طهران وأنقره ، كما عقد معاهدة مع تركيا وروسيا ، فكان لهذه السياسة نتائجها العملية فى جعل الاستقلال حقيقة واقعة .

ولما فرغ الشاه من المشاكل الداخلية فى بلاده ، شرع يعمل على توطيد الروابط السياسية بينه وبين إنجلترا من جهة ، والدول الإسلامية من جهة أخرى ، ولا سيما تركيا ومصر ، وبذلك لم يهمل الأواصر المتينة التى تربط الأفغان بالعالم الإسلامى ، حرصاً منه على المشاركة الفعالة فى آلامه وآماله وفى سنة ١٩٢٩ خلعه الشعب المسلم المستنير لما رأى من تطرفه الأوربى وخلفه

جلالة الملك الحالى محمد ظاهر .

فى معترك هـذا النضال أنجبت الأفغان فيلسوف الشرق (السيد جمال الدين الأفغانى) الذى يعتبر أول باعث لفكرة الجامعة الإسلامية ، وأستاذ المفكرين الأحرار ممن تلقوا على يديه تعاليم النهضة الفكرية، ورفعوا مشاعل الاستقلال فى وجه الاستعمار الجاثم على صدر العالم الإسلامى .

كان أبوه السيد صفدر ممن يخشى نفوذهم (دوست محمـــد خان)، ولما بلغ جمال الدين الثامنة عشرة . كان قد استكمل علومه فى كابل ، فارتحل إلى الهنـد حيث تعرف على أحوالها فى خلال السنتين اللتين قضاهما بها . ثم وصل إلى مكة سنة ١٨٥٧ ووقف هناك على ينبوع الجامعة الإسلامية . فأنشأ بها جمعية أم القرى . ولما بلغ السابعة والعشرين اختاره أعظم خان ليكون رئيس وزرائه لسعة أفقه ، وإدراكه لعظائم الأمور .

ومن الطبيعى أن تعمل له دول الاستعمار ألف حساب ، وأن تحاربه بكافة الطرق المباشرة وغير المباشرة . وحشدت فى وجهه الفلول الجامدة ، كلما قصد بلداً إسلامياً ، وكثيراً ما كان يتهافت عليه الناس تهافت الفراش على النار .

وفى الحق أن جمال الدين كان كذلك ، فلم ينزل ببلد إلا أرث فيه الجذوة الكامنة ، وجلا جوهره النفيس الذى ينطوى عليه كل مؤمن بدينه ، وحذر من تألب المستعمرين على الشرق ، وانقضاضهم على الإسلام بحرب صليبية جديدة .

وتتلمذ عليه فى مصر رواد الحركة الإصلاحية والجهادية من أمثال محمـد عبده وأحمد عرابى وسعد زغلول ومصطفى كامل وعبد الله النديم ، الذين يرجع إليهم الفضل فى القضاء على الجمود الفكرى ، ونبـــذ الخرافات ، واجتمعت أهدافهم على توجيه الأمة إلى التطلع بعين البصيرة ، وقلب الحية ، إلى عالم النور والحرية ، كما نشطت الصحافة حتى كانت لمراجل الثورة وقوداً غـــير منقطع ، وتبودلت الصحف الإسلامية فى شتى الأقطار لتوقوف على أحدث الخطوات ، واعتلى دعاة الحرية منابر الثورة، لتحريك النفوس الهامـدة ، وتأجيج النار الخامدة تحت رماد الخطوب .

وما وافت سنة ١٩١١ حتى صدقت الحوادث نبوءات السيد جمال الدين ، وكان كالذى أمر قومه بأمره وتحذيره ، حتى استبانوا الرشد فى ضحوة الصباح ، فقد انتهكت إيطاليا حرمة طرابلس ، وشقت الدول النصرانية البلقانية عصا الطاعة على تركيا بتحريض من دول الاستعمار على دول الخلافة ، أملا فى خضد شوكتها ، وتوهين نفوذها فى سائر البلاد الإسلامية ، فلم تلبث هذه البلاد أن استنفرت آسادها فى سبيل الله والوطن ، فكان ما لم يكن له حساب عند الأوربيين الذين استيقظوا من سباتهم على القوة الإسلامية الكاسحة مما جعل (السير موريسون) يقول « لا مراء فى أن الإسلام أكثر من عقيدة دينية بل هو نظام اجتماعى تام الجهاز : هو حضارة اكتمل نسيجها ، حضارة لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها » ثم أخذ يستعرض صمود هذا الدين المتين فى مواجهة الأحداث « حتى صار وحدة جامدة نامية نمو الجسم الطبيعى سائراً سيره بفعل نظامه الذاتى الكامن فيه » .

محمد محمود زيتونه

من الأدب الفرنسى

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعه من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة عن نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

الثمن ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد